صورة الواقع العربي

محيي الدين صبحي

بما أن «الآداب» تظل سجلّ ضميرنا القومي، فمن المناسب في هذه الأيام أن يعود المرء إلى اعدادها التي صدرت في أعوام الهزائم والانتصارات، ١٩٥٦، ٦١، ٦٣، ٦٧، ٧٣، ٧٦... ولو عاد المرء إلى تلك الأعداد لفوجىء بأن الفكر العربي لا يتذكر نفسه بعمق إلا في أعقاب هزيمة، ثم يغفو. فهل يغيب أم يغيّب حتى يصحو على هزيمة أخرى، فيغتنم فرصة اختلال أجهزة السلطة ليقول كلمته ثم ينجو بنفسه من سيف السلطان، أو يصير الكاتب لسان الدولة؟

ولكن الأمر مختلف هذه المرة...

إذ يجب أن يكون المرء مصاباً بمرض العظمة حتى يتمكن من تجاهل الأحزاب العربية الحاكمة والمحكومة، والأنظمة التي مضى عليها حين من الدهر يتجاوز العشر سنوات ــ فكلها بدأت في حوالي ١٩٧٠ ولا يبدو أن لها نهاية، لذلك يجب التعامل معها لرؤية الواقع بعيونها. وينبغي أن يكون المرء مجنوناً حتى يستطيع تجاوز الكيانات العربية والمحاور العربية والعلاقات العربية ــ العربية والعلاقات العربية ــ الدولية. ثم هناك اسرائيل وأميركا، ويبدو أنهما أصبحتا من أهل البيت الشرق أوسطي إلى درجة أن الأنظمة وتنظيماتها وبناها لم تجد بداً من انشاء علاقات وحوارات مباشرة أو بالواسطة، بعد أن كان المفكر الذي يلفظ اسم الولايات المتحدة، أو يظن أن بالامكان التوصل إلى صيغة تقنع بعض الاسرائيليين والأمريكيين بتحديد حدود اسرائيل ودورها، يرمى بالحجارة الثورية وتتحرك ضده الأجهزة وتجهيزاتها، فيخرج الجميع «شرفاء» ويبقى وحده وسط المعمعة مذموماً مدحوراً ــ كان الجميع يؤكدون أمرين مطلقين: العداء المطلق للولايات المتحدة والولاء المطلق للاتحاد السوفياتي. أما اسرائيل فكانوا يصرون على إلغائها ولا يقبلون بأقل من إلغائها على الرغم من أنها ماضية في ضمّ الاراضي العربية واستيطانها وتهجير عربها وتدمير ما يحيط بها. هل كان هذا انفصالاً عن الواقع؟ هل كان مثالية مطلقة لا تصلح أساساً لأية سياسة؟ هل كان استناداً إلى تطمينات سرية من السوفيات أو الآلهة على السواء؟ هل كان لديهم تطمينات، ولو كاذبة، من الأعداء؟ أم كانوا يقفون في الهواء ويعملون في الخفاء؟.. لا بد لكل سياسة من أساس مادي ينطلق منه الساسة الى تغيير العالم أو المنطقة المحيطة بهم. وهنا تخطر للبال العلة القاتلة التي أضيفت الى أدواء العرب المزمنة: المزايدات العربية التي توضع فيها القضية بالمزاد ثم يغلي الفرقاء المتنافسون بها الثمن، حتى يصح فيها قول القائل: لما غلا ثمني عدمت المشتري. فالذين أرادوا الوحدة لم يقبلوها إلا «اندماجية، فورية شاملة»؛ والذين أرادوا التحرير لا يرضون بأقل من استرجاع اسبانيا؛ والاشتراكيون يبدأون بتحطيم كل البنى التجارية والصناعية والزراعية

والاجتماعية. حتى إذا فرط كل شيء فرطوا هم أيضاً معه. إذ بما أن الكمال ليس من طبيعة هذا العالم فإن الذي يسير في غابة العلاقات الدولية وعيناه عالقتان بالسماء لا يأمن الوقوع في حفرة او في فخ أو في أنياب الوحوش الضواري. أنا أعلم الناس بأن اتّباع ما يسمى سياسة واقعية لا يعني أقل من الاستسلام الكامل. ولكن التمسك بالمثل الأعلى يفرض علينا ان نكون مثاليين في كل شيء. في السلوك المالي والاجتماعي والسياسي، في السرّ كما في العلن. أما أن يكون المثل الأعلى حصيلة مزايدات لفظية، وليس ناتج ممارسات واجتهادات ــ ثم لا يرافقه إلا ضرب رقم قياسي من التجاوزات من كل نوع وجنس، فعندئذ لا يكون هذا المثل الأعلى إلا غطاء نلتحق به لنخفي عجزنا وضعفنا وفسادنا عن عيوننا وعيون الآخرين. وهذه بالضرورة مقدمة ونتيجة للتفرقة واضطهاد كل فئة لغيرها، وتحويل أي سلطة الى مجموعة من العصابات يهم كلاً منها أن تحمي نفسها من كيد الأصدقاء قبل غدر الأعداء. ونعوذ بالله أن يكون هذا هو واقع الثورة العربية بفصائلها المتعددة المذاهب و «الجنسيات»! فكل الثورات العربية والأنظمة العربية والتنظيمات العربية كلها وحدوية بلا استثناء، أو أنها تهدف الى الوحدة العربية، وإذا عجز العرب خلال أربعين عاماً عن اقامة دولة قومية فقد نجحوا في جعل كل تشكيلاتهم قومية وحدوية. فخسرنا الوحدة وربحنا التشكيلات!

ومنذ أيام ملوك الطوائف في القرن الثالث عشر الميلادي بلغ العرب أوج وعيهم السياسي والاقتصادي والعسكري. فقد اكتشفوا أن صدّ العدوان الأوروبي عن الاندلس لا يتم إلا بالوحدة. ومع أن تناحرهم أدى إلى إخراج العرب من الاندلس فقد قاموا بواجبهم في أن اعتنقوا الوحدة مبدأ بلا تطبيق. ومع أنهم خرجوا من الاندلس فقد انتصروا في كل المعارك التي خاضوها ضد عدوهم المشترك: كانوا يحولون كل هزيمة عسكرية الى نصر سياسي عن طريق مفاوضيهم الاذكياء جداً، الى أن امحى الشعب وبقيت الأنظمة. السبب لا يرجع الى أي نقص في الوعي أو النية الطيبة بل إلى انعدام التزامن بين الأهداف: فحين تريد فئة التحرير تتجه فئة أخرى نحو التوحيد، وثالثة نحو الاشتراكية، ورابعة نحو الحرية ــ وهكذا، فعلى الرغم من أن الجميع وحدويون اشتراكيون تحرريون فإنهم لا يلتقون أبداً. ينتج عن هذا أنهم يستنفدون قواهم في صراعاتهم الداخلية، مما يفرض على كل فئة أن تجعل المحافظة على كيانها غايتها الأولى، فتنغلق وتتصلب بنيتها فتنعزل: عزلتها تجعلها تتراجع عن وعيها الوحدوي إلى لاوعيها الإقليمي ورواسبها التاريخية فتتحلل شخصيتها العصرية وتتخذ شكلاً اقليمياً أو طائفياً. ذلك أن من طبيعة أي تجمع بشري أن يكون منفتحاً في أيام الصعود. ففي فجر الاسلام انفتحت القبائل والمناطق والمذاهب بعضها على البعض الآخر، فلما بدأ السقوط العربي انغلقت البنى السياسية والاجتماعية وتراجعت الى أصولها القبلية والطائفية، وانشغلت بالخطف والذبح واقامة الحواجز واعتراض المسافرين والتدقيق في هويات المارّة وأنسابهم. ولم يكن العدو الخارجي ليعترض على هذه الحالة القائمة او يحول دون استمرارها، لذلك فانه لم يفرض عليهم معركة فاصلة بل اقتصر الأمر على صراعات جزئية، فيها يتم تعديل الحدود كل مرة بموجب مفاوضات مشرفة وتسوية عادلة. وبذلك لم ينهزم نظام ولم يسقط حاكم ولم تتراجع رسالة.

وآلية مثل هذا الانقراض يسهل شرحها: فحين تتصلب البنى السياسية بدافع القمع الداخلي والخطر الخارجي، يجعل الزعيم من نفسه تجسيداً لماضي الجماعة وحاضرها ومستقبلها، وبذلك يصبح كل انتقاد له مساساً بالجماعة كلها. ولما كان كل زعيم تجسيداً

لجماعته (طائفته، عشيرته، إقليمه.. الخ) فإن العمل السياسي يغدو يدور في حلقة مفرغة لأنه ينطلق من شخصية الزعيم ويعود إليها مقتصراً عليها دون مساس بالعالم الخارجي: لهذا يغدو العمل الوحدوي مستحيلاً، وكذلك أي عمل سياسي لأن المحافظة على الجماعة يوجب الابتعاد بها عن الجماعات الأخرى، بذلك يتم تلفيق أهداف لها مخالفة للجماعات المجاورة، على نحو ما شرحنا.

ومن هذا المنطلق لا يهزم الزعيم وإنما تتآكل الجماعة من حوله كأنما بفعل التحات: تخسر ضحايا وأرضاً لكن التسوية التي تحافظ على مكانة الزعيم تُعدّ على الدوام انتصاراً. شاهدنا ذلك عام ١٩٥٦ حين تحولت الهزيمة العسكرية الى نصر سياسي.. وقد ظل الزعماء العرب الى اليوم ينتصرون على هذا النحو. وفي عام ١٩٦٧ حين لم يستطيعوا الحصول على تسوية سريعة لهزيمة حزيران، أعلنوا أن الثورة أنتصرت لأن العدو لم يستطع إسقاط نظام الحكم الثوري. صحيح أن بقية القوى السياسية العربية من أصدقاء وأشقاء تخلت عن عبد الناصر وتركته يخوض معركة الأمة وحيداً ــ لكن هذه هي شكوى كل زعيم وتنظيم. فكل واحد يطلب الدعم الكامل من الجميع، ويعرف أن الاجماع طريق النصر. وتكون هذه الشكوى هي الوسيلة «لتأميم» التنازلات المطلوبة. وبهذه الطريقة خسرنا الارض وكسبنا الحكم والأنظمة والتنظيمات الثورية ــ الأهم من ذلك، ألغي مفهوم الهزيمة من التحليل السياسي والوعي الموجه. واقتصر مفهوم الهزيمة على قدرة العدو على اسقاط نظام أو حاكم، على اعتبار الحاكم تجسيداً للحزب والاقليم والعشيرة والطائفة. أما الخسائر الأخرى من أرض وضحايا واقتصاد فيمكن التغاضي عنها لأن استمرار الزعامة يعوض عن تلك الخسائر سواء بوعود خطابية او بطقوس أسطورية تفتعل فيها معركة ضد عدو داخلي ينتصر فيها النظام ويثبت تماسكه والتفاف الجماهير حوله.

وإذن، هذا هو الواقع العربي: متضامن، وحدوي، منتصر. ولا مجال للتساؤل عن حدوث العكس، لأن الواقع الرسمي يكذب ذلك.

بيروت